علماء الهدى :

عمّار بن ياسر

لحضرة الكاتب الكبير السيد صدر الدين شرف الدين

صور — لبنان

الكاتب الكبير السيد صدر الدين شرف الدين الموسوى غنى عن التعريف بما له من بحوث جليلة الشأن ، فى معانيها ومبانيها ، يعرفها له العالم الإسلامى فيجد فيها العالم بغيته ، والأديب أمنيته ، وهذا بحث من بحوثه التى ستكون فصلا من كتاب يشتغل بإعداده ، هو « حليف مخزوم » . رئيس التحرير

قد تعجب لكهل انصرف من عقده الرابع أو كاد ، يسلّط عليه من حز الحديد ، ومن لفح النار ، ومن ضغط الماء ، عذاب نكر ، فلا يستخذى للعذاب ، ولا يحفل به ، ولا يباليه ، بل يقبل عليه مرة بعد مرة فى مرات كثيرة ، مطمئناً له ، راضيا به ، لكأن أطراف الأسنّة وألسنة النار ، وضغط الماء أشياء من دغدغات حبيب تثير الرضا لا السخط ، وتدعو إلى الاغتباط لا إلى الحزن ، وتحيى الرجاء لا اليأس .

وقد تعجب لشيخ ينصرف من عقده العاشر أو يكاد ، يسلط هو على عدوه من سيفه نارا تشبهها النار ، ومن عزمه حديداً أصلب من الحديد ، ومن اندفاعه سيلا أعنف من السيل .

وقد يبطل عجبك من هذا وذاك ، حين تعلم أن هذا الشيخ الفتى المستطيل ، إنما هو ذلك الكهل الشاب المضطهد نفسه ، وأن هذا الإنسان الراسخ فى حاليه ، لم يستقبل الفتنة المنكرة كهلا ، ولم ينزل فيها للعذاب الشديد الغليظ عن بدنه ،

إلا من أجل عقيدة كانت ماتزال طرية الغرس فى نفسه ، وأنه لم يمتشق فى شيخوخته سيفه العاصف المتأجج المرهوب المحبوب إلا من تلك العقيدة ، وقد توطنت فى نفسه وامتدت واستمكنت ، فإذا هى روحه الذى يتنفس ودمه الذى يجرى . وماذا تنتظر من شيخ تُتيِّم كهولته عقيدة نيرة ، وتصبره على العذاب الشديد الغليظ فيها . وهى طرية الغرس لمّا تنتشر عروقها فى أنسجته وشرايينه ، غير أن تنتضيه ذلك السيف العاصف . وقد هبطت جذورها إلى أخمصيه واشتبكت خيوطها فى مشاشه ، وفشت منه فى كل غُدَّة ، وفى كل حجيرة ، حتى استحال دمه كله إيمانا وإخلاصا ، وحقاً من الحق الصريح .

لم يكن الكهل الشاب يتلقى حز الحديد ، ولفح النار ، وضغط الماء ، بلحمه ودمه ، وإنما كان يتلقاه بعقيدته وإيمانه ، فإذا لقى جلده : هذا الثوب ، من العذاب الشديد الغليظ أذى وتبريحا ، فقد كانت نفسه ، تلك الروح ، تجد من التضحية لذة وترويحا .

ثم لم يكن الشيخ الفتى يصارع عدوه بساعده وعضله ، وإنما كان يصارعه بدينه ومبدئه ، فليس هو - فى واقعة - جارحة تكل ، ولا سيفاً يفل ، ولا ضربة تنبو ، وإنما هو حقيقة تنصب على زيفها انصباب النور على الظلام يزقه تمزيقا ، ويمحوه محواً .

فأى عجب بعد هذا فى أن يصبر كهل على فتنة ، أو يثبت على امتحان ، مهما غلا هذا أو تلك فى قسوة ، أو بالغاً فيها ؟ وأى عجب بعده فى أن تشب شيخوخة هذا الكهل وقد تبين لها الحق ، ووضح لها الطريق ؟. وما حاجة الكهل والشيخ معاً إلى أجساد الشبان ، وعضلات الأحداث مما تنتظره لصبر ممتحن أو إقدام مقدام ؟ وما الفتوة ؟ هل هى سن وميعة صبا ؟ هل هى مرحلة معينة من مراحل العمر ؟ الواقع أنها ليست كذلك ، وإنما هى إيمان ، يكبر حظك منها كلما كبر حظك منه ، هى حماسة إيمان تلبس إهاب الكهول والشيوخ ، كما تلبس إهاب الشبان الأحداث ، فتنشىء فى هؤلاء وهؤلاء ماينشىء الشباب الجلد القوى الصبور ،

وتحرك منه فى هؤلاء وهؤلاء ، ما تحرك من عزم ونشاط ونفاذ وحيوية وتوقد ومضاء . وكم يافع منطوء الجذوة كليل الحد تسقطه الفتوة من حسابها وإن أعجبك منظره ، وكم معمَّر متوهج الجمرة مشبوب الهمة تحتضنه الفتوة الأصيلة ، وإن نبا فى العين مظهره .

وكانت الفتوة تزيد فى صاحبنا على نفسها فى غيره زيادة مضاعفة . كان لا يشك هو ، ولا يشك معه عدوه ولا صديقه فى أن لسيفه ميزة ، فإذا أهدت السيوف إلى خصومها ضربا واحداً من الموت ، فان سيفه يهدى إلى خصمه وخصم صديقه ضربين : أيسرهما فناء الجسد ، وأشقهما لعنة الأبد . ثم كانت تضاعف فتوته ميزة أخرى لنفسه كميزة سيفه . كان يعلم هو وعدوه وصديقه لا يجهلان أنه مع الحق سلم أو قتل ، وأن خصمه مع الباطل انتصر أو خُذل ، وأية حماسة ادعى للفتوة من حماسة إيمان تهدى إلى عدوها موتين أحدهما أخزى من الآخر ، وتدخر لصديقها حياتين أخراهما أبق من الأولى ؟

كهولة حرة برة بكّرت بكلها على الاسلام ، قدمته أحد سبعة سابقين أولين ، فنهض بأجسم أعباء الرسالة وأشقها ، نهوض جهاد متصل ، وتضحية صابرة ، وكفاح مر .

وشيخوخة لم تقصر عن كهولتها حرية ولا برا ، قدّمت صاحبها طليعة وفاء لروح الاسلام ، فكان من الآحاد الأول الناهضين بأعباء الرسالة ، نهوض جهاد متصل ، وتضحية صابرة وكفاح مُر ، فما التقت جبهتا صراع إلا كان (علامة هدى) فى إهداهما سبيلا ، وأعدلهما قضية .

كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم راية المؤمنين لم يتفقدها الرسول فى محنة قط ، إلا وجدها رفافة تقتحم الهول على (الشرك) عنيفة به صامدة لعنفه .

ثم ظل بعد النبى راية المؤمنين لم يتفقدها روح الرسول فى محنه قط إلا وجدها هناك رفافة تقتحم الهول على (الردة) عنيفة بها صامدة لعنفها .

قال المحدث : هذا كله جعل من (عمار) بن ياسر (علامة هدى) يموت

من يموت إلى جنبه موقناً أنه غاد إلى الجنة ، ويهلك من يهلك إلى جنب عدوه ، موقناً أنه رائح إلى النار .

وكان (عمار) يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث خلال من جمعهن جمع الإيمان كله : الانفاق من الإقتار ، والإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم » . وكان ـ ما عاش ـ هذه الخلال الكريمة نفسها ، فما رأيناه بشراً من البشر ، ولكن رأيناه الإيمان بخلاله الثلاث هذه ، يتحرك بين الناس عطاء وإنصافا وسلاما . هو العطاء والانصاف والسلام محاربا كان أو مسالما .

حليف مخزوم :

أسمر اللون ، عُجنت طينته بمسك ، مديد القامة ولد من عائلة الرماح ، بعيد ما بين منكبيه ، صبغ تجسيداً للهابة ، أشهل أصلع ، « فى مقدم رأسه شعرات ، وفى قفاه شعرات » ـ كما قال معاصره القصاص ذو الاداوة .

طويل الصمت كأنما تحدّثه الملائكة ، سديد الرأى لا يخدع عن الصواب ، راجح العقل « ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما » ـ كما وصف رسول الله ـ زكى النفس ، سخى اليد ، هبّاب للحق ، جرىء به ، لا يَلوى فيه ، ولا يصرف عنه .

ولد فى حى بنى مخزوم من (مكة) سنة ٥٧٠ م أو نحوها ، فقد كان تربا للنبى صلى الله عليه وآله ـ كما يقول هو ـ لم يكن أحد أقرب إلى النبى سناً منه ، أما أمه « فسميه » بنت خياط ، وكانت أمة لأبى حذيفة سيد بنى مخزوم ، ولم تكن فى أماء قريش أمة مثلها حرة فى ذكاء القلب ، وصحة العقل ، وملاحة الوجه ، وعفة النفس ، وطهارة الذيل .

وأما أبوه فياسر بن عامر ، عربى عنسى مذحجى قحطانى يمانى . أقبل من اليمن مع أخويه : مالك والحارث ، يلتمسان أخا رابعا لهم كان قذف به قدر من أقدار الحياة الكثيرة المصطلحة يومذاك على اليمن تفرّق أهلها ، وتبعثرهم هنا وهناك ، وتنفّرهم من وطنهم الذى ألح عليه الجفاف ، وابتلاه فساد الحكم بالقحط والمحن ، والبطالة ونضوب العيش ، فيهاجرون منه أفراداً ، ويهاجرون منه جماعات بحثاً عن الرزق ، وتنقيباً عن العمل .

وكانت مكة مهاجراً تترى إليه الوفود اليمانية منذ تفرقوا أيدى سبأ ، أمتها جرهم الثانية ، وأمتها خزاعة ، وحكمتاها واحدة بعد الأخرى غالبتين على حكمها أهلها من بنى إسماعيل ، حتى استعاده (قصى) بن كلاب (٤٠٠ م) ، واستأنفه مضرياً ، وأمّ غير جرهم وخزاعة غير مكة من الحجاز ، فعمرت يثرب بالأوس والخزرج ، وأم غير هؤلاء وأولئك غير الحجاز من العراق والشام واليمامة ونجد والعروض منتشرين كالجراد يملأون فراغ الجزيرة العظيمة ، ويزودون هلالها الخصيب بما حملوه من كثافة ، وما نقلوه من ثقافة وأوضاع .

وكانت مكة تمتاز على جميع هذه المهاجر بأنها دار أمن لا يأتيه الخوف من بين يديه ولا من خلفه ، وبأنها دار رخاء لا يدنو إليه الجوع من فوقه ولا من تحته ، ففيها بيت الله ، وعليها سدنته الأسماح المطيبون ، يبذلون لضيوفها الرفد والكرامة من أنفسهم ، ويبسطون العدل فى القضاء من حكومتهم ، فهم آمنون وادعون ، كافلون للأمن والدعة ، لا يروعون ولا يروّعون .

فلما يئس الإخوان الثلاثة من العثور على فقيدهم فى مكة ، انحسر عنها مالك والحارث ، واستقر فيها (ياسر) حليفاً لمضيفه أبى حذيفة سيد مخزوم ، يحفظه هذا ، ويحفظ هو لهذا يده عنده ، ويثيب احسانه إليه ، وامتناعه به ، بالوفاء له أكرم الوفاء وأصفاه وأخلصه . وكان أبو حذيفة كأخيه (هشام) من قبل وكأخيه (الوليد) من بعد ، زعيما سمحا كريما رضيا حافظا للمعروف ، مثيبا عليه ، وكان حدبا على حليفه العنسى بوجه خاص . رؤوفا به رحيما ، يؤثره بحب يضيفه إلى ما أخذ به نفسه من حلفه ، وربما أضاف إلى هذا أو ذاك شيئاً من احترامه لهذا العنسى الغريب الذى اضطرته الأقدار إلى الاعتصام بغير داره ، ورمته إلى دار يطلب فيها الحماية من غير أهله ، وعسى أن يكون ، بل هو قد كان ، ذا دار منيعة عزيزة ، وذا أهل كرام أشداء ، من أجل هذا حالفه أبو حذيفة ، ثم أحبه ، ثم احترمه ، ولم يخيب ياسر ظن حليفه ، فوفى له ، ثم تصرف بوفائه تصرف العقلاء الأعزاء الذين يلائمون بين أدب الغريب وضعف اللاجىء ، وبين كرامة النفس واستقلال الرأى ، فكان من سلامة سلوكه ومن صفاء معدن حليفه معاً أن عُرف بعد ذلك مخزوميا

له ما للمخزوميين ، وعليه ما عليهم . يطوف بأندية (قريش) ما يطوف حبيبا أثيراً محترما ، لا يثقل على أحد بتكليف ، ولا يستثقل أحد له ظلا .

وفى ذات يوم فكر أبو حذيفة بحليفه العنسى ، فرآه مستقيما لا تطيش به نزوات الرجال ، ورأى أنه رجل لابد لبيته من مرأة ، ورأى أن الحياء والاقلال يحولان بينه وبين ما يطمح إليه كل رجل من زوج تدبر له المنزل ، وتكشف عنه وحشة الوحدة ، وترزقه خير الأولاد ، فزوجه (سمية) بنت خياط أحب أمائه إليه وأحظاهن عنده وأكرم الاماء جوهراً فى ذاتها وطهارتها . ثم كان من بره بحليفه ، وقدره الدقيق لمشاعره الحرة تحريرأبنائه من (سمية) . لم يسأله ياسرذلك ، ولكنه هوأحس مابنفس ياسرفرفع عنه بأريحية صناعة إنتاج العبيد والاماء ، وكان أفضل (نقوط) عند ياسر حرية بطن سمية التى وقع منها على كنز ، أى كنز .

أوضاع مكة :

درج الصبى عمار ناضج الصبا ، خامرالطفولة ، يثب إلى النمو وثوبا ، ويسبق الزمن إلى اكتمال الرجولة واستيفاء الذكاء جميعا ، وكأن ما بنفسه من طموح أعانه على القفز ، وألغى عنه ما يفرض على غيره من حكم الزمن ، وانتظار إذنه فى الانتقال من مرحلة إلى مرحلة . ومن دور إلى دور ، ومن هيأة إلى هيأة .

وشب الصبى الكبير . فهو الآن يقرب من العشرين إن لم يكن بلغها بعد ، ذو هدى ووقار وبر بوالديه ، ورفق بعشرائه ، يعنى الناس من شره ، ويعفيه الناس من شرورهم ، فهو صامت غاديا ، وصامت رائحا ، ذاهب فى الجومن غدوه ورواحه مطرقاً يرفع نفسه عما يدنس غيره من سادة مكة وعبيدها ، وبيضها وأحابيشها ممن أبطرهم الغناء وأفسدهم الرخاء ، ومال بهم الطيش إلى سفه ومجون ، وتشدق ووقوع فى أقوات الناس وأعراضهم .

وحسب الذين تعودوا صمت (عمار) أنه صمت الغريب المستضعف ، يسبغه ويضفيه ، فيحسن إسباغه وإضفاءه أدب فى نفسه ، ووداعة فى طبعه ، ولين فى مزاجه ، وانصراف عما لا يعنيه . أما الذين عاشروه حق المعاشرة ، وبلوا دخائله

حق البلاء ، فكانوا يعلمون أن لصمته مصدراً آخر أعمق من هذه المصادر كلها ، وإن كانت هذه لمصادر حق تؤثر فيه الصمت ، وتطبعه عليه . أما المصدر الخطير فكان تفكيراً ملحاً من تفكير حنيف - كما كانوا يقولون - أو وعى حر - كما تعودنا أن نقول اليوم - من وعى الأحرار المفكرين ، وكان الوعى فى عهده متململا يبرق إلى الواعين ، ويخامرهم ، ويؤامرهم ، ويحثهم حثاً عنيفا على إعادة النظر بهذه الوثنية المظلمة ، وبهذه العادات الرثة ، وبهذه الأنظمة البالية ، ولكنهم كانوا يخشون الجهر ، ويخافون الظهور ، ولا سيما مستضعف كعمار ، أكبر حجته فى بقائه بمكة حلف أبيه لأبى حذيفة ، وكل قوته أنه منسوب إلى هذا الزعيم من مخزوم ، فما أحراه إذ يضطرب وعيه بعيب للآلهة ، أو نقد للتقاليد أن يتخلى عنه أبو حذيفة ، وما أحراه إذ يتخلى عنه أبو حذيفة أن تمزقه السياط ، أو تتقاذفه الغلمان ، أو تتخطفه الشياطين ، فيذهب من أجل هذا صامتا صمته العميق المفكر ، موادعا سادة قريش موادعة أحلافهم وعبيدهم ، منتظراً مع هذا وذاك رجفة الزلزال التى يحسها فى نفسه ، ويحسها فى نظرائه ، ويحسها فى سير الأحداث .

وكان خلال صمته يتنقد بينه وبين نفسه ، وربما انتقد بينه وبين أبيه مصير مكة فى عهده ، وسوء منقلب سادتها أو أكثرهم ممن أسرفوا على مكة وعلى الناس وعلى أنفسهم ، فارتدوا جبابرة يوشك أن يبدلوا أمن (البيت) خوفا ، ويعيدوا بشاشة الحياة عبوسا ، ويردوا رجاء العيش شدة ، فهؤلاء سفهاء من أمية وجمح وسهم وعدى ، لا تكفيهم أفياؤهم ومرابحهم ، ولا تسد شهواتهم القيان ومن استزلهن الشيطان من نساء الحاضرة حتى يسطوا بتجارة الغرباء ، ويغلبوا الزائرين على بناتهم ، فيبلغوا حاجتهم من الأموال والأعراض بغزو أبشع من غزو البادية وأشنع وأشد استهتارا .

قال لأبيه مرة : ويح هؤلاء السفهاء ، ألا يتقون شر هذه البدع المنكرة فى قدس بلدهم الذى به يحيون ، إن لم يتقوها فى زكاة أنفسهم ، وتقوى ضمائرهم ، ألا ينظرون إذا تسامع بشأنهم الناس من حجاج (البيت) ومصرٍّ فى التجارة ، أن يخلعوهم من (البيت) ويزيلوهم من الحكم ، أو يقاطعوهم إذا لم يستطيعوا

إلى خلعهم وإزالتهم سبيلا ، فيميتوهم فقراً ومذلة وهوانا ؟ ما رأيت طيشاً كطيش هؤلاء السفهاء ! ولا يُرى طيش كطيشهم يفسد على صاحبه آلة العيش بَلْه عفة النفس وراحة الضمير !

فقال له ياسر : أراك منذ اليوم تكبر على سنك ، وتسمو فوق شأنك ، أتسوق إلى هذا الحديث من نفسك ؟ أم ألقى به إليك ملق أراد بك شراً ؟ .

قال عمار : لم يلق إلىّ بهذا الحديث إلا عينى المبصرة ، وأذنى السامعة ، نقلناه إلى نفسى ، ثم لم تنقله نفسى إلى أحد قبلك ، ولم تنقله إليك إلا هذه الساعة ، وإن كنت لأعلم أن نفراً من الصعاليك أمثالى ليئنون أنينى ، ويشكون شكواى . أترى تقر أعين الناس وتطيب نفوسهم بما تنكر الأعين والأنفس ، من استرقاق الرقيق ، واستضعاف الضعيف ، وامتصاص الجهود باسم آلهة هى أشد رقا من الرقيق ، وأعظم ضعفاً من الضعفاء ؟

فقال له أبوه . قد أعلم ما تعلم يا بنى ، وأوقن بما توقن ، وأزيد فاسمى لك نفراً من العبيد والأحلاف وبعض أبناء البيوت يشوكهم ما يشوكك ، ولكن أكتم هذا فى نفسك ، ولا تجاوزه إلى أحد ممن فى هذا الوادى ، إن يَذعْ عنك هذا النقد يُثر عليك وعلى شراً لا نقدر على دفعه ، ولا نقوى على تحمله ، وتعلّم - يا بنى - أن لهذا (البيت) ربا يحميه ، ويكشف عنه كل ضر ، أنت لم تكن يوم (الفيل) فقد كنت رضيعاً ، وقد كنت أنا وشهدت يومه فيمن شهده ، ورأيت كما رأى الناس عجبا ، رأيت سيد قريش : عبد المطلب بن هاشم ، يأمر أهل مكة أن يخلّوا بين (أبرهة) الحبشى وبين (البيت) ولم يكن له ولا لقريش قِبَل بلقاء جيشه الجرار المنظم ، ورأيته مطمئناً يذيع الطمأنينة فى أهل مكة ، ويعدهم النصر دون قتال ، وكنت يائساً - ولا أكتمك - فى مكة مع اليائسين ، شاكا بوعد عبد المطلب مع الشاكين ، ولكنى رأيت بأم عينى هذه جيش (ابرهة) ممزقا شر تمزيق ، منكلا به شر تنكيل ، فما كاد يوعز الحبشى إلى جيشه بالهجوم ، حتى غام الجو واضطرب ، وأخذه مخاض شديد ، ثم أقبلت من مجاهله سحب من طير صغار تحمل فى مناقيرها وأرجلها حصى صغارا ، ثم ترمى الجيش المعتدى منه

حصاها بوباء ، فلا ترمى إحداهن الحصاة الصغيرة على رجل إلا خرقته ونشرت فيه دائين من حصبة وجدَرى ، وما هى غير ساعة حتى انكشف العدو مقطعاً وانتصر (البيت) موفورا ، وجعلت الطير مشكورة ، ونزلت السماء تغسل بقايا الوباء . ومنذ ذلك اليوم تعلمت أشياء نافعة كثيرة ، تعلمت الإيمان برب البيت الذى يعبده عبد المطلب ، لا بهؤلاء الأرباب الذين تعبدهم عامة قريش ، وتعلمت أن إيمان المؤمن المستضعف أقوى من قوة الظالم المتعجرف . وتعلمت ألا أزيد بانتصارى للحق على طاقتى ، ولا أعدو فيه طورى ، نازلا عن قيادته لأصحاب القيادة وأكفائها ، كما نزل عبد المطلب لربه عن حماية (البيت) فيما أعجزه من حمايته ، دع هذا الأمر - يا بنى - لأصحابه ، فأنت بالقياس إلى هؤلاء السفهاء أضعف من عبد المطلب بالقياس إلى جيش أبرهة ، وبنو عبد المطلب فى حرصهم على قداسة (البيت) وأمن بلدهم وقدرتهم على الأخذ بأعراف هؤلاء السفهاء ، حيث لاتقاس إلا بأحد غلمانهم ، فدع لهم أو لواحد منهم أن يتحدث بهذا الأمر ويفشيه بين الناس ، فانه إن يفعل لايجد أحد فى مكة إليه سبيلا ، وعساه إن فعل أن يبلغ من تأديب هؤلاء السفهاء ما يرضيك ويرضينى ويرضيه ، وسواء أبلغ من تأديبهم الحاجة أم لم يبلغها ، فهو من حاليه فى حصن من الأذى ، وفى قمة من طاعة الناس لأمره ، وأصغائهم إلى قوله ، أما نحن - يا بنى - فليس لنا من الأمر غير الرضوخ والصبر ، فان أبينا سلخوا جلودنا كما تسلخ الشياه ، ثم لا ينتطح فى محنتنا عنزان ، وليتنا إذ نسلخ نبلغ الحاجة من تعميم الخير ، وإفشاء العدل ، إذن يكون ثمننا مغريا ، ولكننا لن نجد إذ نحدّث الناس بهذه الأمور غير الاستخفاف والسخرية ولن نجد إذ نضحى غير اللوم والتقريع من جزاء . ألا تعلم يابنى أن التحدث بأمور العامة فى نظام كنظامنا الحاضر وقف على الأقوياء من السادة والقادة والأشراف والنبلاء ، وأنه محرم علينا نحن الضعفاء من الأرقاء والحلفاء والصعاليك والدهماء . وآخر ما أوصيك به أمران : أن تؤمن برب هذا (البيت) من إله عبد المطلب لا آلهة قومه . وأن تثق بهؤلاء النفر من هاشم ، فهم - فيما رأيت وبلوت - أصحاب الخير فى هذا الوادى ، وعسى أن يكون لهم شأن فى شكايتك هذه هم بالغوه فى هذه الأيام .

بهذا تحدثنى نفسى حديثا أستيقنه جملة ، وأجهله تفصيلا ، وما أدرى مايأخذنى من تربك : (الصادق الأمين) كلما رأيته . إن له طلعة لحتها تضمن بُشر عام وخصبه ، وقد كان جده عبد المطلب يتوسم به أعظم الخير ، وينتظر أن يكون له شأن من شئون السماء .

قال عمار لأبيه : لست أعدولك رأيا ، ولا أخالف لك أمراً ، ولكنى رأيتك تخضع الهاشميين إلى إله غير آلهة قريش ، فما هو هذا الإله ؟ وما مكانه ؟ وماذا عساه أن يكون ؟ ولماذا لا يظهرونه كما يظهر الآخرون آلهتهم . ؟

قال ياسر لابنه : أنا لا أعرف إله الهاشميين معرفة كاملة ، ولكنى أدرت فيهم وفى قومهم ما يمكن أن أدير من عقلى ، فوجدت لهؤلاء رأيا جميلا فى الله ، ورأيا جميلا فى الحياة ليس لقومهم مثلها : وليس إله عبد المطلب إلها مصنوعا لا يَنصر إلا أن يُنصر ، ولا يعطى إلا أن يُعطى ، بل هو إله صانع ينصر ولا يستنصر ، ويعطى ولا يستعطى ، ألم تر إلى ما حدثتك به من أمر (ابرهة) وجيشه ؟ ألم تر إلى تلك الطير الضئيلة التى لا نعرف مثلها فى النسور ، وإلى حصواتها الصغار التى لانعرف مثلها فى الصخور ، كيف أهلكت جيشاً لم تثبت له اليمن ؟ ذلك كله مظهر من مظاهر القدرة فى إله عبد المطلب . فأين منه آلهة الناس مما يصنعون من تماثيل ودُمى عمى صم بكم لا تعقل ، ولا تدفع عن نفسها شراً ان أردناها بشرّ ، وإله مثل إله عبد المطلب - يا بنى - خليق أن يكبر على طاقتنا ، فلا يخضع إلى تصرفنا كى ننقله أو نحمله أو نعبث به كلما شئنا ، كيف شئنا .

قال عمار : لست أعنى بإظهاره تجسيده ، ولا تمثيله ، ولا نقله من عليائه إلى مصاف هذه الأحجار الصم العمى البكم ، فليكن إظهاره بإظهار أمره وإفشاء سره وإعلان قدرته .

قال ياسر : لكل أجل كتاب - يابنى - لا يسبقه ولا يتأخر عنه ، وكيف يتأتى لعارفى هذا الإله العظيم إظهار أمره قبل تحرير الناس من سيطرة الخرافة ، وقيد العادة ، وعبادة الذات ، وسحر الوهم ، وهذه كلها جنود مجندة ، لا تكاد

تحس المتحرر حتى تأخذ عليه الافاق ، وتسد عليه الطرق ، وقد رأيت عبد المطلب برغم ذلك يتأتى الفرصة ، ويسعى فى مَهَل إلى خدمة ربه دون أن يحفظ قومه أو يريبهم فيفاجئهم شيئاً فشيئا بسنن وتنظيمات تعدهم لما يسميه (الحنيفية) من دين جده إبراهيم ، ومن حكمته - فى تأتيه الفرصة وتحينها - أنه بدأ بنفسه ، فاجتنب الخمر على أنها رجس ، ولم يحرج قومه بحملهم على اجتنابها ، مكتفياً بهذه السلبية التى تقبح عادة من عاداتهم ، وتسفه حلما من أحلامهم ، وتنزل من عقول عقلائهم منزل القدوة ، ثم فارقهم فى حقيقة دينهم كله بسلبية أخرى دون إكراه ، وذهب إلى غار (حراء) يتحنث وينسك معتزلا آلهتهم متوجهاً إلى إلهه بصومه وعبادته ، مكتفياً أيضاً بسلبية تحقر الأوثان تحقيراً غير مباشر ، وتشنع على الوثنية والوثنيين تشنيعا دوّى فى صدور الأحناف ، ثم تجاوز حقل الدين إلى حقل الحياة بثورة أخرى على شكل آخر ، فأهان (أساف ونائلة) إلهى النحر والأضحيات ، بحفره عندهما بئر زمزم ، وقد تكلف بهذه الثورة بعض الجهد ، واحتمل بعض المشقة ، ولكنه انتصر ، وأعلن من نصره هذا نصرين عظيمين ، على الخرافة والتقاليد ، انتصر على (أساف ونائلة) باستخفافه بهما ، وإعلانه ضعف خطرهما وانتصر على عجز الإنسان باكتشافه ماء زمزم : هذه البئر التى لا تنزف أبدا ولا تذم . ثم كانت له آيات أحدثت فى سور القوم المسحور كثيراً من الصدوع ، وفتحت به كثيراً من الثغر ، فى جهاد صادق كان يصرع الأوهام فى هذا البلد شيئاً بعد شىء ، ويؤلب عليها أهله والأقرب من عشيرته وصديقه ، فإذا جاء اليوم الخطير وجد طريقه ممهدا .

قال عمار : ولماذا لم ينصره - يا أبت - ربه نصراً حاسما بآية كطير أبابيل ، وما باله يؤتيه النصر شيئا بعد شىء كالمدين المطول لا تطيب نفسه بالوفاء جملة ، فيسدد دينه أقساطا .

قال ياسر : هذه مسألة قد يكون على أقل من الجواب عليها : وقد يكون عند أبى طالب حلها أو بعض حلها ، ولكنى أظن رب عبد المطلب ربا فى قدرته الهائلة غنيا فى ذاته ، وإنه فى قدرته الهائلة رب رؤوف حليم غير ذى انتقام ،

فهو فى غناه الذاتى قادر على الإمهال ، نشيط على الصبر ، كالدائن السمح يسدى بالإدانة أيادى عدة لا يداً واحدة : يداً فى الدين ، ويداً فى أرباح الدَّين ، ويداً ثالثة فى إمهال المدين حتى يدركه يسار النفس ويسار المال ، وهو فى غناه الذاتى بعد هذا كله حيث لا يضره غى الناس ، ولا ينفعه رشدهم ، فسيان عنده علموا أو جهلوا ، وسيان عنده سفهوا أو عقلوا ، وسيان عنده شقوا أو سعدوا ، لا يناله من أحوالهم كلها ربح ولا خسارة ، وإنما يريد لهم ما يريد من خير ، ويأبى لهم ما يأبى من شر ، ثم لا يليق بغناه الذاتى فقر التدخل بأحوالهم على نحو الجبر ، لذلك لا يكرههم على الفضيلة إكراها ، وإنما يخيرهم ، ويخلى بينهم وبين ما يشاؤن من فضيلة أو رذيلة ، فى أناة من لا يخيفه الفوت ، ولا يعجزه الطلب .

وهو من رأفته ، بمكان الألوهة ؛ ينظر منه إلى أعدائه نظره الى أصدقائه ، كلهم عباده ، وكلهم عياله ، وكلهم حرى عنده أن يحيى ويعيش ويسعد ، لا يأتى التفاوت فى هذه الأمور من قبله ، وإنما يأتى من قبلهم ، صدره ليس ضيقا كصدورنا - يابنى - بالحقد ، حرجا بالحسد ، فواراً بالنقمة ، بل هو صدره الرحيم الفسيح الخافق بالحب والرحمة والغفران ، فلو قد عجل على المخطئين بالنقمة ، وأغلق فى وجوه العاصين أبواب التوبة ، لم يكن حالذاك إلها ، وإنما كان ملكا جباراً تعروه الخطيئة ، ثم يجب عليه القصاص ، ثم إذا فعل ما تتمناه أنت من معاجلة الناس قل لى : من يبقى من البشر على وجه البسيطة ؟ وإذا أخلى البسيطة من الناس ، قل : من ذا الذى يعرفه بعدهم ؟ وما الفائدة بعد ذلك من الأنظمة والشرائع والقيم ؟ بل ما ذا يبقى للحياة كلها من الغايات والأغراض والأهداف ؟ تعلم - يابنى - أن رب عبد المطلب رب لا أطول من أناته ، ولا أوسع من رحمته ، ولا أغنى من ذاته ، لا يكره بل يخير . ولا يعنف بل يلطف ، ولا يعجل بل يمهل ولا يعسر بل ييسر ، وقلما يظهر من قصاصه ، ثم لا يقتص إلا إذا طفح الكيل ، وإلا إذا توقفت على القصاص حكمة من حكمه البالغة ، أو خيف انقطاع هذا الخيط الضعيف الذى يشد الأرض إلى السماء .

قال عمار لأبيه : لله حرة انكشفت عنك - يا أبتى - ! إننى لأشرب كلامك

هذا كما أشرب الرحيق ، فينشر فى نشوة سأسأل شاربى الخمر عن دبيبها ، يخيل لى ـ يا أبه ـ بعد الذى سمعت أنك لست إنسانا ، وإنما أنت ملك يغرس فىّ ريشا من أجنحته ، بقيت عندى مسألة لا أحب أن يفوتنى علمها .

قال ياسر لابنه : قل وخلاك ذم إن يكن عندى خير فهو لك .

قال عمار : يا أبتى رأيتك تعظم من بنى هاشم ما لا تعظم من بنى مخزوم ، وقد أعلم أن بنى هاشم أرفع مكانة ، وأعز نفرا ، ولكن مخزوما حلفاؤك ، وذووا الفضل عندك ، أليس من الوفاء لهم أن تحبس عليهم ميلك .

فقال له أبوه : وصلتك رحم يا بنى . أنا إنما أعظم الحق بمعزل عن هاشم ومخزوم ، ولو حدثتك بحديث القلب والعاطفة لكنت جديراً بالميل إلى أحلافى كما زعمت ، ولكنى أعلم أن ميلى العصبى كل ميل عصبى ، لايغنى عن الحق شيئا ، ولا يغير منه شيئا ، وقد رأيت بعينى رأسى وعينى يقينى ـ وهن أربع ـ أن الفرق بين هاشم وبين عامة قريش ، وأفضلهم مخزوم ، كالفرق بين إله هاشم وبين آلهة قريش . أولئك أرواح برة نشيطة عاملة مدركة ، وهؤلاء تماثيل جامدة ثقيلة بغيضة ، فإذا تحركت لم تأت بخير .

خذ الحق ـ يابنى ـ حتى من نفسك ، فورب عبد المطلب لو فارقتنى أنت فيه لفارقتك ، ولكان أعظم برى بك وحبى إياك أن أدخلك عليه ، أو أدخله عليك ما استطعت ، فإن لم أستطع كان أعظم حبى إياك وبرى بك أن أرثى لحالك من بعيد هذا قياس وفائى لمخزوم : أهبها قلبى وأمنع عنها عقلى إلا فى الحق فإن خالفت الحق رجوت لها أن تعرفه ، وهذا أعظم الوفاء .

وبلغا من حوارهما هذا الحد .

قال المحدّث : وكان حوارهما هذا من حديثهما الصباحى ، وكان صباح (مكة) صباحا قرشياً مترفاً ، تحتشد فيه الأندية ، ويطيب فيه الحديث ، وكان ياسر يتخلف عن نادى بنى مخزوم أحيانا ليجلس إلى ابنه يحاذبه كلاما هو أشبه بالدرس منه بالعبث والمفاكهة اللذين تصرف بهما قريش السأم عن الوقت ، وكان لياسر

من ملاحظته وعقله وتجربته وحكمته اليمانية ما يؤهله أن يقع من ابنه موقع المعلم من التلميذ .

قال المحدث : وقطع عليهما حوارهما ذلك الصباح هتاف هبط عليهما من (أبى قيس) كما هبط على غيرهما ، وعلى غير بيتهما ، من متحدثة (مكة) وأنديتها ، وقطع من الأحاديث كلها ما قطع من حوارهما ذاك ، وأنصتا فاذا الهتاف يهبط من (أبى قبيس) نقياً صافيا حاراً مثيرا يبعث الروع والروعة جميعاً ، وتابعاه بكل حسهما ، وبما اقشعر من بدنيهما ، فإذا هو يردد هذه الأبيات فى نقاء وصفاء وحرارة وإثارة :

يا للرجال لمظـــلوم بضاعتـه ببطن مكة نائى الحى والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا أهل (فهر) وبين الحجر والحَجر
هل منصف من بنى (سهم) فرتجع ما غيبوا ؟ أم ضلال مال معتمر

قال عمار : أرأيت - يا أبتى - إلى ما حدثتك عنه من سفه هؤلاء ؟ لقد بلغت الشكوى منهم رؤوس الجبال !

فقال ياسر : ما شككت - يا بنى - أن طفولتك تنفتح عن شباب رشيد ، ولكن احفظ عنى ما أمرتك به فى صدر حديثى آنفا ، وانهض الآن فاقتص لنا أثر هذا الخبر ، ما خطب هذا الهاتف يصايح (مكة) بهذه الشكوى المرة ؟ وما عسى (مكة) أن ترد على هذا المظلوم من مظلمته الصارخة ؟

ولما عاد ياسر قال لأبيه : لم يخطىء علمك ببنى هاشم من صلاحهم شيئا . كان الهاتف رجلا من (زبيد) أقبل إلى الحاضرة ببضاعة ثمينة ابتاعها منه أبو عمرو العاص بن وائل السهمى ، فآواها إلى بيته ولما يدفع ثمنها لأخى زبيد ، ثم غيّب وجهه ، ويطلبه الزبيدى فيعجزه الطلب ، ويبتغى متاعه فيمتنع عليه المتاع ، ويلتمس بنى سهم يشكو اليهم أخاهم فلا يجد وجوها ، بل يجد أقفية ، ويبلى فى طلب حقه بلاء حسنا ، فيطوف على أندية قريش من ظهراء (سهم) فلا يجد غير اعتصاب على الاغتصاب ، وغير ممالأة على الغزو المجرم ، وغير عفو من الجميع عن العاص

يشترى منه عفواً عن مثلها يأتيها حرب بن أمية ، وأبي بن خلف وغيرهما من فتّاك مكة وعصابتها . وانتهى آخر الأمر إلى (أبي قبيس) يشكو أمره إلى قريش مجتمعة ، بعد أن شكا إلى أكثرها متفرقة ، راجياً أن يكون لشكواه المعلنة شأن وتأثير ، وبرسله ـ كما سمعنا ـ صوتا يهوى من العلياء كما ينزل الصوت من السماء .

قال عمار متابعاً : ولقد جهدت أن أحس وقع هذا الصوت العادل ، وأرى إلى أثره المرجو فى هذا الحرم من وطن السلام ، فلم أجد غير قفر يبسط ظله الصحراوى على كل مكان إلا واحة تنشزفتهتزللنداء اهتزاز نجدة وأريحية وإيمان .

قال ياسر : لعلك انقلبت عن نادى الزبير بن عبد المطلب ؟

فقال عمار : ما أعلمك بهؤلاء النفر يا أبته ؟ وقد تركته يتحرك فى اتجاه حلف يضع حداً لهذه المهازل ، لكأنك تنظر إليه بما حدثتنى عن رجل الانقلاب وصاحب الساعة .

قال ياسر : ما ظننته هو بالذات ، وما أظنه صاحب الساعة التى أعنى ، وإن كان لمن معدانها وأسبابها . ومالك تعجل ولكل أجل كتاب ؟

قال المحدّث : وولع الصبى بعد ذلك ولوعه الهائم بالعدل ، وأولعه العدل بالهاشميين ذلك الولوع الهائم أيضاً . وكان بكر اهتماماته اهتمامه بنتائج صفقه الزبيدى .

غدا على أبيه مرة عادياً ، وقص عليه قبل أن يلفظ أنفاسه النبأ التالى :

أثمر مسعى الزبير بن عبد المطلب ، فاجتمع له مؤتمر عقده فى دار عبد الله ابن جدعان التيمى ، وألفه من بنى هاشم وبنى أسد وبنى زهرة وبنى تيم ، وحضر معهم تربى (الصادق الأمين) فتماسحوا بأكفهم ، وتحالفوا ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا له حقه ، ما بلّ بحر صوفة ، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب ، ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يردوا له مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، وتحالفوا على التأسى فى المعاش ، والتساهم بالمال أيضا . وقد أسمى الزبير حزبه هذا (حلف الفضول) . وكانت أولى ثمراته انقاذ حق الزبيدى من فرعون بنى سهم .

وأقبل على أبيه ذات يوم يقص عليه : دخل السوق تاجر من بنى بارق فباع

بضاعته من أبي بن خلف الجمحي ، وهو - كما تعلم - مطول سيء المخالطة ، فاضطر البارق لرفع أمره إلى حلف الفضول ، ويقول له الزبير : أخبر أُبيّا أنك أبلغتنا شكواك ثم عد إلينا إذا لم يخرج إليك حقك . فأتاه فأخبره فأخرج إليه حقه .

وقص عليه مرة فقال : قدم خثعمي إلى مكة تاجراً ، ومعه بنت اسمها (القتول) وهي أوضأ فتاة ، وأصبح نساء العالمين ، ويراها نبيه بن الحجاج السهمي فيرى منها ما يبهره ، ويُطير نفسه حولها فيؤالي أن يطبق عليها وينزعها من يد أبيها . ويقتحم عليها وجه أبيها وصدره ، ثم يتركه بعدها خزيان أسفا ، يتقلّب في أثرها طرف خاسر حائر خائر ، ويقال له - وهو سادر - : عليك بحلف الفضول ، وكأنما أدركه الفرج ، فينشط ويعود من حلف الفضول ومعه رسل الزبير إلى نبيه يأمرونه بإخراج الفتاة إلى أبيها ، فيناشدهم نبيه أن يمتعوه بها سواد ليلة ، فيقولون له : قبحك الله ما أجهلك ! والله ولا شخب لقحة . أخرجها وإلا . فيخرجها صاغراً ، وتخرج مكرّمة .

ويقول ياسر لابنه : كان عبد المطلب قبل (الفضول) وكانت رسله تحل هذه المشكلات ، أغرى حرب بني أمية أحد رجاله باغتيال ثري مستضعف ، واغتيل المسكين فاحتاز حرب تركته ، ورفعت القضية إلى عبد المطلب ، فأعاد سيد قريش التركة إلى الورثة ، وغرم حرباً دية القتيل مائة ناقة .

ثم تمر الأيام آخذاً بعضها برقاب بعض ، وعمار يغدو على أبيه من أطرافها ويمسي بخبر من هذه الأخبار ، وبفكرة من هذه الفكر ، لا يمل هو ، ولا يمل أبوه ؛ ولعل أباه أعرف منه بهذه الأخبار وهذه الأفكار ، ولكنه يصغى إليه إصغاء المشجع ، ويعلق على أخباره تعليق المربي ، وكان بعد كل إصغاء ، وبعد كل تعليق يأمره بالتحفظ ، ويوصيه أن يحفظ ما يأمره به ، وكان الصبي يختم كل قصة وكل فكرة بقوله : لله أبوك يا أبتي . لم يخطىء عليك ببني هاشم من صلاحهم شيئا ؟